

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه في سورة البقرة وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة { لم تعطون قوماً مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً } أي لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكهم إياهم قالت لهم المنكرة { معذرة إلى ربكم } قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقدير هذه معذرة وقرأ آخرون بالنصب أي نفعل ذلك { معذرة إلى ربكم } أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر { ولعلمهم يتقون } يقولون ولعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم قال تعالى : { فلما نسوا ما ذكروا به } أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة { أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا } أي ارتكبوا المعصية { بعذاب بئس } فنص على نجات الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين لأن الجزاء من جنس العمل فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيما فيذموا ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس { وإذا قالت أمة منهم لم تعطون قوماً مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً } هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعا في ساحل البحر فإذا مضى يوم السبت لم يقدرُوا عليها فمضى على ذلك ما شاء الله ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة وقالوا تأخذونها وقد حرّمها الله عليكم يوم سبتكم فلم يزدادوا إلا غيا وعتوا وجعلت طائفة أخرى تنهاهم فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النّهاء تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب { لم تعطون قوماً مهلكهم } وكانوا أشد غضباً من الطائفة الأخرى فقالوا { معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون } وكل قد كانوا ينهون فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا لم تعطون قوماً مهلكهم والذين قالوا معذرة إلى ربكم وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة وروى العوفي عن ابن عباس قريبا من هذا وقال حماد بن زيد عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال : ما أدري أنجا الذين قالوا { لم تعطون قوماً مهلكهم } أم لا ؟ قال فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا فكساني حلة وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج حدثني رجل عن عكرمة قال جئت ابن عباس يوما وهو يبكي وإذا المصحف في حجره فأعظمت أن أدنو منه ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت : ما يبكيك يا ابن

عباس جعلني ا فداك ؟ قال فقال هؤلاء الورقات قال وإذا هو في سورة الأعراف قال تعرف أيلة ؟ قلت نعم قال فإنه كان بها حي من اليهود سيقن الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقدرّون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة كانت تأتيمهم يوم سبتهم شرعا بيضاء سمانا كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيّتهم فكانوا كذلك برهة من الدهر ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال : إنما نهيتهم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فخذوها فيه وكلوها في غيره من الأيام فقالت ذلك طائفة منهم وقالت طائفة بل نهيتهم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونساءها واعتزلت طائفة ذات اليمين وتحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت وقال الأيمنون ويلكم ا منهاكم أن تتعرضوا لعقوبة ا وقال الأيسرون { لم تعظون قوما ا مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا } قال الأيمنون { معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون } أي ينتهون إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم فمضوا على الخطيئة وقال الأيمنون فقد فعلتم يا أعداء ا و ا لا نبايتكم الليلة في مدينتكم و ا ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم ا بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا فوضعوا سلما وأعلوا سور المدينة رجلا فالتفت إليهم فقال : أي عباد ا قردة و ا تعادى تعاوى لها أذنان قال ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القروء أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة فجعلت القروء يأتيا نسيبها من الإنس فتشم ثيابها وتبكي فيقول : ألم نهكم عن كذا فتقول برأسها : أي نعم ثم قرأ ابن عباس { فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس } قال : فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها قال : قلت جعلني ا فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم ؟ وقالوا { لم تعظون قوما ا مهلكهم } قال : فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين وكذا روى مجاهد عنه وقال ابن جرير : حدثنا يونس أخبرنا أشهب بن عبد العزيز عن مالك قال : زعم ابن رومان أن قوله تعالى : { تأتيمهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبّتون لا تأتيمهم } قال : كانت تأتيمهم يوم السبت فإذا كان المساء ذهبت فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر فاتخذ لذلك رجل خيطا ووتدا فربط حوتا منها في الماء يوم السبت حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجد الناس ريحه فأتوه فسألوه عن ذلك فجحدهم فلم يزالوا به حتى قال لهم فإنه جلد حوت وجدناه فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك ولا أدري لعله قال ربط حوتين فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجدوا رائحة فجاؤوا فسألوه فقال لهم : لو شئتم صنعتم كما أصنع فقالوا له : وما صنعت ؟ فأخبرهم ففعلوا مثل ما فعل حتى كثر ذلك وكانت لهم مدينة لها ربح يغلقونها عليهم فأصابهم من المسخ ما أصابهم فغدا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما

يطلب الناس فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا فلم يجيبوهم فتسوروا عليهم فإذا هم قردة فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنو منه ويتمسح به وقد قدمنا في سورة البقرة من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقلع وكفاية و الحمد والمنة (القول الثاني) أن الساكتين كانوا من الهالكين قال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : ابتدعوا السبت فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل فإذا جاء السبت جاءت شرعا فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ثم إن رجلا منهم أخذ حوتا فخزم أنفه ثم ضرب له وتدا في الساحل وربطه وتركه في الماء فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاه منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك في الأسواق ففعل علانية قال : فقالت : طائفة للذين ينهونهم { لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم } فقالوا : نسخط أعمالهم { ولعلمهم يتقون * فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن سوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون * فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين } قال ابن عباس كانوا ثلاثا ثلث نهوا وثلث قالوا { لم تعظون قوما الله مهلكهم } وثلث أصحاب الخطيئة فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم وهذا إسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاه الساكتين أولى من القول بهذا لأنه تبين حالهم بعد ذلك والله أعلم وقوله تعالى : { وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس } فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا وبئس فيه قراءات كثيرة ومعناه في قول مجاهد الشديد وفي رواية أليم وقال قتادة موجه والكل متقارب والله أعلم وقوله { خاسئين } إي ذليلين حقيرين مهانين